« وفى أذهان الناس عن الصعاليك صورة غامضة غير مشرقة ، تكسوها ظلال قاتمة تحجب كثيراً من معالمها وخطوطها ، وتغشّيها سحب دُكن تخفى وراءها كثيرا من النور والضياء وينقصها كثير من الأضواء الكاشفة تجلو عنها ظلالها القاتمة ، وتبعد عنها سحبها الدكن حتى يتبين ما يحتجب خلفها من معالم وخطوط وأضواء » .

والذى لا يخفى فى هذا المسار أيضا أن الدكتور خليف لم يفصل - بشكل قاطع بين شاعرية أسلوبه ومنهجية بحثه ، بقدر ما صنع منهما معاً مزيجاً طريفا محكما أومعزوفة لغوية متكاملة يشكل من خلالها أحكامه التى آثر صياغتها فى مثل هذه اللغة التصويرية العميقة التى جاءت خصبة دفاقة ، مما يوقفنا على ضرورة إصدار الحكم لصالحه من منطلق التسليم بجمال الأداء اللغوى والأسلوبى والتصويرى لديه بما يزيد المنهج ثراء وعمقا ورشاقة وروعة ، كما يزيده براعة وتمكنا وكشفا عن تميز صاحبه ، وتمكنه من امتلاك ناصية لغته ، مما يذكرنا على الفور - كما قلنا - بأداء الجاحظ ورونق أسلوبه ، أو ميل الدكتور طه إلى الصدور عن هذا الأسلوب العربى الرائق الذى يستأثر بجمهوره من خلاله .

ويبدو أن مسلك المبدعين من الباحثين قد مال إلى هذا المنعطف المتميز حين حملوا عبء الجمع بين الحسنَيين من واقع الإلمام بموارد المورورث وبين ما أهلته لهم ملكات الإبداع ، فأضافوا إلى النقد إبداعاً ، أو لنقل - بلا مبالغة - أحالوا الرؤى النقدية إلى مواقف إبداعية من خلال جمال التصوير وروعة التوصيل ، والاعتداء بذوق المتلقى على طريقة زعماء مدرسة البديع العباسية ممن أفاضوا فى توظيف « اللون البديعي » فى خدمة تشكيل «الصورة الفنية» فما عابهم شيء طالماً وضحت الصورة ، وبانت معالمها على طريقة مسلم بن الوليد وأبى تمام والمتنبى وأبى فراس والشريف الرضى .

وتظل شاعرية أسلوب الباحث مؤشرا من مؤشرات حيوية أدائه ، والصدور